عملية الإبداع

تعد عملية الإبداع الأدبي ظاهرة معقدة يكتنفها كثير من الغموض و الإبهام ، وربما يعود ذلك إلى ارتباطها بالنفس البشـرية ، و ما يكتنف هذه النفس من تعقيد وتشـعب و أغوار يصـعب الولوج إليها ، و الإلمام بخفاياها ، و من ثم كانت المحاولات الأولى لتفسـير ظاهرة الإبداع الأدبي شعرا كان أم نثرا مرتبطة بتبريرات أسـطورية مردها – في غالب الأحيان- إلى عالم الجن و الشـياطين والسـحر ، و هو الوقف الذي وقفته قريش من الظاهرة القرآنية في إعجازها البياني ، إذ نعتوه بقول شـيطان كما ينص على ذلك القرآن الكريم في معرض رده على دعواهم و تفنيده لها : (و ما هو بقول شـيطان رجيم) [1] ، كما ربطوا القرآن الكريم أيضـا بالسـحر كما تبينه الآية الكريمة (و قالوا مهما تأتنا به من آية لتسـحرنا بها، فما نحن لك بمؤمنين) [2] .

و الحقيقة أن إضـفاء الطابع الأسـطوري الخرافي على عملية الإبداع ، يعود إلى العصـر الجاهلي ، إذ كان للكهان – و ما عرف عنهم من إخبار عن الأمور الغيبية بنثر مسـجوع- دور في التأسـيس لهذه المفاهيم ، فقد كان المعتقد أن لكل كاهن " رئي " من الجن يظهر له ، و يلقي عليه ما شاء من قول ، و قد جاء في السيرة النبوية أن عتبة بن ربيعة قال للرسول – صلى الله عليه وسلم – : " و إن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، و بذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه" [3].

[1] – سورة التكوير : آية 25 .

[2] – سورة الأعراف : آية 132 .

[3] – السيرة النبوية : لابن هشام ، 1/313-314 .

غير أنه بمرور الوقت فإن " هذا التفسـير " الميتافيزيقي " للظاهرة الإبداعية في النقد العربي أخذ ينحسر شيئا فشيئا كلما ابتعد الناس عن العصر الجاهلي – عصر الأساطير و الإيمان بخطر الجن و الشياطين في حياة الناس– ليحل محله تفسير أقرب إلى الروح العلمية" (4).

و من هنا أدرك النقاد العرب القدامى صعوبة عملية الإبداع الأدبي ، فهي ليست شيئا هينا سهلا خاضعا لإرادة المبدع و مشيئته يأتيه متى شاء و حيثما شاء ، بل هو معاناة نفسية و عقلية شديدة التعقيد و الصعوبة ، إنها أشبه بحالة المخاض التي تسبق ولادة الخطاب الأدبي .

و قد ربط النقاد العرب القدامى بين الإبداع و الموهبة ، فلا إبداع لمن لا موهبة له ، فالجاحظ مثلا يشجع الناشئة على ولوج ميدان الأدب بشرط أن تكون لهم القريحة المساعفة على ذلك ، و هي في مفهوم الجاحظ الموهبة الأدبية ، و الاستعداد الطبيعي لكتابة المنظوم و المنثور ، و للأخذ بفن القول أيا ما كان نوعه، وفي ذلك يقول الجاحظ : " و أنا أوصيك أن لا تدع التماس البيان و التبيين إن ظننت أنك لك فيها طبيعة ، و أنهما يناسبانك بعض المناسبة ، و يشاكلانك بعض المشاكلة ، وتهمل طبيعتك فيستولي الإهمال على قوة القريحة ، و يستبد بها سوء العادة" (5) ، ويستشف من قول الجاحظ أن الطبع وحده لا يكفي لأن الأديب لابد له من الطبع ثم الدربة و الممارسة ، ثم التجربة و الخطأ حتى يستبين الطريق المستقيم الذي يتواءم معه ، و يجعل أبو حيان التوحيدي الطبع على رأس العوامل المكونة لشخصية الجاحظ الأدبية كصاحب مذهب في الكتابة الفنية ، فيقول : " و مذهب الجاحظ مدبر بأشياء لا تلتقي عند كل إنسان ، و لا تجتمع في صدر كل أحد : بالطبع و المنشأ و العلم و الأصول و العادة و العمر و الفراغ و العشق والمنافسة و البلوغ" (6).

---

[4] – نظرية الإبداع في النقد العربي القديم : د/ عبد القادر هني ، ص : 288 .

[5] – البيان و التبيين : 200/1 .

[6] – الإمتاع و المؤانسة : للتوحيدي ، 66/1 .

كما ربط النقاد العرب القدامى بين عملية الإبداع ، و حالة الذات المبدعة ؛ فأنسب الحالات للإبداع هي التي تكون فيها النفس مرتاحة قد أخذت بحظها من الراحة ، وركنت إلى شيء غير قليل من الدعة و الاطمئنان ، و بالمقابل تكون حالات التعب و الإرهاق من أبعد الحالات عن الإبداع و الابتكار لتشتت الذات المبدعة ، وعدم قدرتها على التركيز ، و في ذلك يقول بشر بن المعتمر : " خذ من نفسك ساعة نشاطك و فراغ بالك ، و إجابتها إياك ، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرا ، وأشرف حسبا، و أحسن في الأسماع ، و أحلى في الصدور، و أسلم من فاحش الخطاء ، و أجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ، و معنى بديع ، و أعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد و المطاولة و المجاهدة ، و بالتكلف والمعاودة ، و مهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا ، و خفيفا على اللسان سهلا ، و كما خرج من ينبوعه ، و نجم من معدنه" (7).

و هو المعنى نفسه الذي يوكده ابن المدبر بقوله:"و ارتصد لكتابك فراغ قلبك ، و ساعة نشاطك ، فتجد ما يمتنع عليك بالكد و التكلف ، لأن سماحه النفس بمكنونها ، وجَود الأذهان بمخزونها ، إنما هو مع الشهوة المفرطة" (8).

و يكاد يتفق معظم النقاد على أن هناك أوقاتا معينة ، تثير في النفس الشعور بالدعة و الراحة و الاطمئنان ، مما يعد من أهم العوامل المساعدة على الإجادة في عملية الإبداع الأدبي ؛ فالجاحظ يجعل المعرفة بساعات القول من البلاغة (9) ، و أبو تمام (ت 232 هـ) يحدد في وصيته للبحتري أحسن الأوقات صلاحية لممارسة عملية الإبداع بقوله: " تخير الأوقات ،و أنت قليل الهموم ، صفر من الغموم ، واعلم أن العادة في الأوقات إذا قصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه أن يختار وقت السحر، و ذلك أن النفس تكون قد أخذت حظها من الراحة و قسطها من النوم ، و خف عنها ثقل الغذاء ، وصفا من

---

7 - البيان و التبيين : 1/135-136

8 - الرسالة العذراء : لابن المدبر (ضمن جمهرة رسائل العرب) ، 4/194 .

9 - البيان و التبيين : 1/88 .

أكثر الأبخرة و الأدخنة جسم الهواء ، و سكنت الغمائم ، ورقت النسائم ، و تغنت الحمائم" [10].

و يوكد ابن قتيبة بدوره أن الإبداع الأدبي لا يتأتى للشاعر أو الناثر إلا في أوقات معينة وفي أماكن خاصة توفر للمبدع الجو الملائم للإبداع ، يقول : " وللشعر أوقات يسرع فيها أتيه ، و يسمح فيها أبيه ، منها أول الليل قبل تفشي الكرى ، ومنها صدر النهار قبل الغداء ، و منها يوم شرب الدواء ، و منها الخلوة في الحبس و المسير، و لهذه العلل تختلف أشعار الشاعر ، و رسائل الكاتب" [11] ، فابن قتيبة لا يكتفي بتحديد الأوقات المناسبة للإبداع، و إنما يتعداه إلى تحديد مكان تخلد فيه النفس لخلواتها لتمارس فيها لذة الإبداع دون تشويش أو إزعاج من أي طارئ خارجي ، مما يسمح للمبدع بالانصهار كلية في عمله الإبداعي .

و يرى أبو هلال العسكري أنه لا يمكن إبداع خطاب أدبي جيد إلا لمن منح الذات المبدعة فترات تركن فيها إلى ظل من الدعة و الراحة و الاطمئنان " فإذا غشيك الفتور ، و تخونك الملال فامسك ، فإن الكثير مع الملال قليل ، و النفيس مع الضجر خسيس ، و الخواطر كالينابيع يسقى منها شيء بعد شيء ، فتجد حاجتك من الري ، و تنال أربك من المنفعة فإذا أكثرت عليها نضب ماؤها ، وقل عنك غناؤها" [12] .

و قد يستعصي الإبداع على الأدباء حين يطلبونه في كثير من الأوقات ، فالكلام – على حد تعبير التوحيدي – " صلف تياه ، لا يستجيب لكل إنسان ، و لا يصحب كل لسان ، و خطره كثير ، و متعاطيه مغرور،وله أرن كأرن المهر ، و إباء كإباء الحرون ، و

---

[10] – مقدمة في صناعة النظم و النثر:للنواجي، ص:41-42

[11] – الشعر و الشعراء : لابن قتيبة ، ص : 35 .

[12] – الصناعتين : للعسكري ، ص : 151 .

زهو كزهو الملك ، و خفق كخفق البرق ، و هو يستهل مرة ، ويتعسر مرارا ، و يذل طورا ، و يعز أطوارا " [13] .

و في كتب التراث العربي كثير من الشواهد على استعصاء مجال الإبداع على الخطباء مثلا و ما ذلك إلا لأنهم وضعوا في مواقف و مقامات و أوقات لم يكن لهم فيها استعداد للإبداع ، من ذلك أن خالد بن عبد الله القسري ، صعد المنبر يوما بالبصرة ليخطب فأرتج عليه ، فقال : " أيها الناس ، إن الكلام ليجيء أحيانا ، فيتسبب سببه ، و يعزب أحيانا فيعز مطلبه ، فربما طولب فأبى ، و كوبر فعصى ، فالتأتي لمجيه أصوب من التعاطي لأبيه ، ثم نزل ، فما رؤي حصر أبلغ منه " [14] ، وكان المبرد – على الرغم من بلاغته و لسنه و فصاحته– يتعذر عليه مجال القول أحيانا ، و يروم الكتابة في غرض من الأغراض فلا يقدر على ذلك ، و قد صرح بذلك قائلا : " و لربما احتجت إلى اعتذار من فلتة ، أو التماس حاجة ، فأجعل المعنى الذي أقصده نصب عيني ، ثم لا أجد سبيلا إلى التعبير عنه بيد و لا لسان ، و لقد بلغني أن عبيد الله بن سليمان ذكرني بجميل ، فحاولت أن أكتب إليه رقعة أشكره فيها ، و أعرض ببعض أموري ، فأتعبت نفسي يوما في ذلك ، فلم أقدر على ما أرتضيه منه ، و كنت أحاول الإفصاح عما في ضميري ، فينصرف لساني إلى غيره" [15].

و يحاول ابن قتيبة تعليل استعصاء الإبداع على الأدباء ، فيرجع ذلك إلى ما ينتاب النفس من مشاغل وهموم تعكر صفوها ، يقول : " و للشعر تارات يبعد فيها قريبه ، و يستصعب فيها ريضه ، و كذلك الكلام المنثور في الرسائل و المقامات والجوابات، فقد يتعذر على الكاتب الأديب ، و على البليغ الخطيب ، و لايعرف لذلك سبب إلا أن يكون من عارض يعترض على الغريزة من سوء غذاء أو خاطر غم " [16] .

---

13 – الإمتاع والمؤانسة : للتوحيدي ، 9/1

14 – الأمالي : للقالي ، 111/1

15 – الصناعتين : للعسكري ، ص : 171 .

16 – الشعر والشعراء : لابن قتيبة ، ص : 35 .

كما ربط النقاد العرب بين الإبداع و ميل الذات المبدعة ؛ فهناك أنماط معينة من الإبداع تميل إليها الذات المبدعة ، وأخرى لا تميل إليها ، لأن شروط القبول – قبول الأنماط الإبداعية– يتصل أساسا بالذات المبدعة و بميولها ، ولذا نجد بعض الأدباء يحسنون ضروبا من الخطاب الأدبي ، و لا يحسنون بعضه الآخر، و قد أشار إلى هذه الحقيقة أبو هلال العسكري بقوله : " و الناس في صناعة الكلام على طبقات ؛ منهم من إذا حاور و ناظر أبلغ و أجاد ، و إذا كتب و أملى أخل وتخلف ، و منهم من إذا أملى برز ، و إذا حاور أو كتب قصر، و منهم من إذا كتب أحسن ، وإذا حاور وأملى أساء ، و منهم من يحسن في جميع هذه الحالات ، و منهم من يسيء فيها كلها ، فأحسن حالات المسيء الإمساك ، و أحسن حالات المحسن التوسط ، فإن الإكثار يورث الإملال ، و قل ما ينجو صاحبه من الزلل و العيب و الخطل" [17].

[17] – الصناعتين ، ص : 30 .